قراءة للواقع الداخلي الأمريكي

مؤشرات ودلائل الانتقال الحضاري

د. باسم خفاجي

(نائب رئيس تحرير التقرير الاستراتيجي.)

ملخص البحث

لا يزال اهتمام الأمة العربية والإسلامية بفهم الغرب، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية، أو أوروبا الغربية، أو غيرها من دول الغرب محدودًا وقاصرًا، ولا يتواكب مع تطور العلاقة وأثرها على مستقبل الشعوب العربية والإسلامية، ليس على المستوى السياسي والعسكري والأمني فقط، وإنما على المستويات الاجتماعية والفكرية والثقافية والتقنية أيضًا.

تهدف هذه الدراسة إلى المساهمة في تغطية النقص المتعلق بمعرفة وفهم الواقع الداخلي للولايات المتحدة الأمريكية، في مطلع القرن الحادي والعشرين، من خلال دراسة أهم المؤشرات الاجتماعية التي تؤكد أن أمريكا تتجه نحو التراجع من ساحات التأثير الدولي، وأن مشروع الهيمنة على العالم لا تواجهه فقط عقبات وصعوبات خارجية ودولية، وإنما قد تتسبب العوامل الداخلية أيضًا في عرقلة الطموحات السياسية والرأسمالية لتلك التيارات الفكرية الأمريكية التي تحلم بالسيطرة على البشرية وسيادة العالم.

يؤكد البحث في بدايته على أهمية فهم الواقع الاجتماعي الغربي، والأمريكي تحديدًا، وأن معرفة النظرة العامة للشعوب تجاه القضايا والأحداث تُعين على فهم السياسات الخارجية التي تنطلق من دول تلك الشعوب، وأن أهمية معرفة واقع الشعوب من الداخل من النواحي الاجتماعية والاقتصادية، لا تتنافى أو تتعارض مع إدراك الدور الذي تقوم به النخب السياسية الحاكمة أيضًا في توجيه السياسات الداخلية والخارجية للدول.

ثم ينتقل البحث إلى دراسة فكرة التراجع الأمريكي، ومتى بدأ، والعوامل التي تساهم في تسارعه، وارتباط ذلك بالتاريخ الأمريكي. ويقدم الباحث مراجعة مختصرة لأهم المؤشرات الاجتماعية التي تدل على هذا التراجع في مجالات الفقر، والجريمة، والانحلال الخلقي، وتناقص المواليد وازدياد الهجرة، وتنامي الظواهر العنصرية داخل المجتمع، وكذلك تهميش الدين، أو محاولة استخدامه للأغراض السياسية.

ثم يقدم البحث رؤية حول تأثير العوامل الداخلية على السياسة الخارجية الأمريكية، وضرورة فهم تلك العلاقة المتشابكة. وينتهي البحث بتقديم رؤية حول مستقبل التراجع الأمريكي، ومؤشراته.

أفكار ومقتطفات

- أصبح الحديث عن الإسلام حديثًا شائعًا بين المثقفين في الغرب، وأظهرت استطلاعات الرأي أن فهم العالم العربي، ومظاهره الإعلامية والثقافية، قد ظهر بقوة ضمن اهتمامات المواطن الغربي بالعموم.

- العلاقة مع الغرب، وخصوصًا مع أو في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية في الأعوام الأخيرة تساهم بشكل رئيس في تشكيل مستقبل المنطقة العربية، وتؤثر على صياغة العقل العربي على المستوى الثقافي والاجتماعي من خلال الإعلام، والضغط السياسي والفكري والاقتصادي أيضًا.

- عدم معرفة، أو فهم واقع الغرب الداخلي بوضوح ودقة قد أصبح مرضًا يعصف بمجموع العالم الإسلامي، ولم ينجُ منه الكثير من مثقفي ومفكري الأمة، سواء من تيار الوسط الذي يمثل أغلبيتها، أو بين أصحاب التيارات الانعزالية، أو حتى أصحاب تيار التقليد والاقتداء بالغرب في كل مناحي الحياة.

- بدون فهم صحيح ومتجدد لواقع الغرب، لن نُجيد التعامل معه، ولن نُحسن فهم أسباب تراجعه الوشيكة، أو كيف يمكن الاستفادة من ذلك التراجع. إننا في عالم تحاول أمريكا بأشكال متعددة إفساده من ناحية، وتأخير إدراكه لتراجعها من ناحية أخرى.

- هناك من يرى أن الولايات المتحدة قد انقسمت فعليًّا إلى أمريكيتين: الأولى هي بلد العالم الأول الذي يرفل في ثوب الرفاهية، أما البلد الثانية فإنها تلك التي تنتمي إلى العالم الثالث؛ حيث المعاناة من شظف العيش والأوضاع المُزْرِية التي تتوارى عن أعين وأقلام الصحفيين.

- اكتشف الكثير من المفكرين في الولايات المتحدة الأمريكية في الأعوام الأخيرة، وعقب الكثير من الحوادث والكوارث الطبيعية مدى هشاشة وضعف البنية الاجتماعية الأمريكية، وهو ما يعيق بقوة أيّ مشروع حضاري حقيقي تدَّعِي الولايات المتحدة زعامته.

- تنبأ العديد من المفكرين الغربيين بزوال الحضارة الغربية، وأرجعوا ذلك في المقام الأول لأمور مرتبطة بالواقع الداخلي الأمريكي والغربي، وليس لقوى خارجية أو هزائم عسكرية، رغم وجود هذه العوامل أيضًا.

- يميل المفكرون الأمريكيون إلى أن المهاجر يجب أن «يذوب في هوية المجتمع الأمريكي»، وأن الولايات المتحدة هي بوتقة كبيرة تندمج فيها أفكار المهاجرين، وتذوب في النهاية ضمن فعاليات المجتمع. وقد يكون لهذه الهوية تأثير محدود على هذا المجتمع، ولكن المهاجر عليه أن يتخلى في النهاية عن هويته الأصلية؛ لكي يعتنق الهوية الأمريكية.

- في إحصائية جمعها كتاب المؤلف الأمريكي جايمس باترسون، «يوم أن اعترفت أمريكا بالحقيقة»، يذكر المؤلف أن ٧٤٪ من الأمريكيين لا يمانعون من السرقة، إن كانت الفرصة سانحة، وأن ٦٤٪ منهم لا يرون في الكذب مشكلة ما دام مناسبًا، ولا يُعرِّض حياة الغير للخطر، وأن ٥٣٪ من الرجال والنساء يمكن أن يخونوا أزواجهم، إن سنحت لهم الفرصة.

- نسبة الأميين البيض، بين إجمالي عدد الأميين في الولايات المتحدة، أكبر من نسبتها بين السود، وهو ما يخالف الصورة الذهنية الشائعة، والتي ترى أن البيض أكثر تعلمًا وذكاءً من السود في أمريكا، وهي نتاج العنصرية الأمريكية، التي يتم تصديرها إعلاميًّا وفكريًّا بأشكال مختلفة إلى كل أنحاء الأرض.

- رغم أنه لأول مرة في تاريخ أمريكا يتقدم أمريكي أسود، كمنافس قوي لرئاسة البيت الأبيض، وهو باراك أوباما، لكن هذا التطور في وضع الأمريكان من ذوي الأصول الإفريقية قابله تشاؤم في نظرة المواطن الأمريكي- الإفريقي حول تحسن وضعه الاقتصادي والاجتماعي.

- أظهرت أحداث سبتمبر أن الديمقراطية يمكن التضحية بها من أجل ما سُمِّي بالأمن القومي، ومحاربة الإرهاب، فقد قامت الولايات المتحدة لأول مرة في تاريخها عقب تلك الأحداث بإنشاء وزارة داخلية على نمط وزارات داخلية دول العالم الثالث، وبدأت في إجراءات أمنية متشددة، وقامت بتغيير القوانين؛ لكي تسمح بالكثير من الإجراءات الأمنية، التي كان يُنظَر لها في السابق على أنها من علامات الدكتاتوريات في الشرق، وفي الكيان الشيوعي قبل سقوطه، وإذا بها جميعًا تُطبَّق، وبسرعة، عندما تعرضت أمريكا للخطر.

- إن أحد المشكلات الرئيسة التي تواجه دول العالم عندما تتعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية، هو تلك القناعة المتجذرة في العقل الجمعي الأمريكي أن الولايات المتحدة «استثناء» تاريخي، وأن العالم لا غنى له عنها. وقد ترسخت هذه العقلية بشكل داخلي أولاً، ولكن يجري تصديرها على ألسنة الساسة والمفكرين والإعلام، رغم أن الواقع الحالي يشير إلى التراجع أكثر بكثير مما يشير إلى النهضة أو التقدم.

- لا بد للعالم أن يتكاتف من أجل إسقاط أكذوبة «الإمبراطورية الخيِّرة»، التي حاولت الولايات المتحدة أن تفرضها على مخيلة شعوب العالم؛ كي تُبرِّر بها مشروعات النهب والسيطرة والعدوان على الغير.

قراءة للواقع الداخلي الأمريكي

مؤشرات ودلائل الانتقال الحضاري

د. باسم خفاجي : نائب رئيس تحرير التقرير الاستراتيجي

مقدمة

تشابكت العلاقة بين العالم العربي والإسلامي، وبين الغرب بالعموم والولايات المتحدة الأمريكية بشكل خاص ومتزايد مع مطلع القرن الحادي والعشرين، وأصبحت تلك العلاقة هي المحرك الرئيس والأساسي في سياسات العالم أجمع، وليس السياسات المتعلقة بالمنطقتين فحسب. وقد ارتبط ذلك التشابك في العلاقة باهتمام غير مسبوق من الغرب بمعرفة العالم العربي والإسلامي، ليس فقط على المستوى السياسي والفكري، وإنما أيضًا من قِبل المثقفين والمفكرين والعامة في المجتمعات الغربية.

لقد أصبح الحديث عن الإسلام حديثًا شائعًا بين المثقفين في الغرب، وأظهرت استطلاعات الرأي أن فهم العالم العربي، ومظاهره الإعلامية والثقافية، قد ظهر بقوة ضمن اهتمامات المواطن الغربي بالعموم. فلا حاجة اليوم لتعريف المواطن الأمريكي بقناة الجزيرة مثلاً، أو أين تقع العراق أو أفغانستان على خريطة العالم، أو ما هو الحجاب، أو لماذا يصلي المسلمون أو يَحُجُّون. وفي المقابل شابَ ذلك الاهتمام شيوع الصور النمطية التي يقدمها الإعلام الغربي عن الأمة العربية والإسلامية، وهي ليست صورًا إيجابية في المجمل، وصاحَبَها أيضًا تقصير من الإعلام العربي والإسلامي في التعريف الصحيح بالأمة ومواقفها.

ومن ناحية أخرى ظل اهتمام الأمة العربية والإسلامية بفهم الغرب، سواء كان ذلك فيما يتعلق بالولايات المتحدة الأمريكية، أو أوروبا الغربية أو غيرها من دول الغرب محدودًا وقاصرًا، ولا يتواكب مع تطور العلاقة وأثرها على مستقبل الشعوب العربية والإسلامية، ليس على المستوى السياسي والعسكري والأمني فقط، وإنما على المستويات الاجتماعية والفكرية والثقافية والتقنية أيضًا.

تهدف هذه الدراسة إلى المساهمة في تغطية النقص المتعلق بمعرفة وفهم الواقع الداخلي للولايات المتحدة الأمريكية، في مطلع القرن الحادي والعشرين، ودراسة أهم المؤشرات الاجتماعية التي تؤكد أن أمريكا تتجه نحو التراجع من ساحات التأثير الدولي، وأن مشروع الهيمنة على العالم لا تواجهه فقط عقبات وصعوبات خارجية ودولية، وإنما قد تتسبب العوامل الداخلية أيضًا في عرقلة الطموحات السياسية والرأسمالية لتلك التيارات الفكرية الأمريكية التي تحلم بالسيطرة على البشرية وسيادة العالم.

أهمية فهم واقع الولايات المتحدة الأمريكية:

إن العلاقة مع الغرب، وخصوصًا مع/ أو في مواجهة الولايات المتحدة الأمريكية في الأعوام الأخيرة تساهم بشكل رئيس في تشكيل مستقبل المنطقة العربية، وتؤثر على صياغة العقل العربي على المستوى الثقافي والاجتماعي، من خلال الإعلام والضغط السياسي والفكري والاقتصادي أيضًا. لذلك فإن دراسة وفهم واقع الغرب ليس ترفًا فكريًّا، وإنما ضرورة ملحة تزداد الحاجة إليها يومًا بعد يوم، إضافة إلى أنها تمثل تطورًا طبيعيًّا للتواصل بين الشعوب في ظل التقنيات الحديثة، ووسائل الإعلام الإلكترونية، وقنوات التلفاز الفضائية التي أصبحت عابرة للحدود والقوميات والثقافات والقارات أيضًا.

> دراسة وفهم واقع الغرب ليس ترفًا فكريًّا، وإنما ضرورة ملحة تزداد الحاجة لها يومًا عن يوم.

وقد اهتم المسلمون منذ بداية الدعوة بمعرفة الغرب، وأحواله وصفات أهله وواقعهم، فهذه كتب السيرة تروي عن المستورد القرشي -رضي الله عنه-، عن عمرو بن العاص -رضي الله تعالى عنه-، أنه قال: «سمعت رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يقول: «تقوم الساعة والروم أكثر الناس»، فقال له عمرو: أَبْصِر ما تقول. قال: أقول ما سمعت من رسول الله، صلى الله عليه وسلم. فقال عمرو: لئن قلتَ ذلك؛ إن فيهم لخصالاً أربع: إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كَرَّة بعد فَرَّة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسةٌ حسنةٌ جميلةٌ وأَمْنَعُهُم من ظلم الملوك». أخرجه الإمام مسلم. ويتضح من كلام الصحابي الكريم حرصه على معرفة أحوال الروم، وسبب وجود دولتهم، وعوامل استقرارها الاجتماعي، وهو ما نحتاج إليه في هذا الزمان؛ اقتداء بفعل خير القرون، رضوان الله تعالى عليهم أجمعين.

إن استمرار الجهل بالواقع الداخلي لهذه الثقافة الأمريكية، التي تسعى إلى تصدير منتجاتها الفكرية والإعلامية المؤثرة لكل العالم، والانعزال عن فهم خلفياتها الفكرية والعقدية، قد سبَّبا تخبطًا عمليًّا في عالمنا العربي والإسلامي في أسلوب التعامل مع المجتمع الأمريكي، والانتقال الحادّ بين موقفين كلاهما غير نافع للأمة، وهما إما الدعوة إلى الانعزال غير الواقعي، والرفض الكامل لكل ما جاء به الغرب، أو الانكفاء التام في مستنقع التبعية والتقليد وفقدان الثقة في الذات، وتصوُّر أن الطريق الوحيد لنجاة الأمة هو في فقدان هويتها مقابل قبول كل ما جاء به الغرب من فكر وثقافة وأسلوب حياة.

ومن اللافت للنظر أن عدم معرفة أو فهم واقع الغرب الداخلي بوضوح ودقة، قد أصبح مرضًا يعصف بمجموع العالم الإسلامي، ولم ينجُ منه الكثير من مثقفي ومفكري الأمة، سواء من تيار الوسط الذي يمثل أغلبيتها، أو بين أصحاب التيارات الانعزالية، أو حتى أصحاب تيار التقليد والاقتداء بالغرب في كل مناحي الحياة. إن تجاوز الأزمة الحالية في فهم الغرب يستلزم العديد من الدراسات، التي تهدف إلى التعريف بالواقع الداخلي لهذا الغرب، ومحاولة فهمه فهمًا صحيحًا قبل تحديد آليات ووسائل التعامل معه فكريًّا وحضاريًّا ودعويًّا أيضًا.

إن معرفة النظرة العامة للشعوب تجاه القضايا والأحداث تُعين على فهم السياسات الخارجية التي تنطلق من دول تلك الشعوب، وقد ذكر الباحث الأمريكي روبرت كيجان في كتابه «عن الفردوس والقوة» ما يؤكد ذلك عندما قال: «يفضل الأمريكيون عمومًا اعتماد سياسات القسر بدلاً من الإقناع، مُغَلِّبين العقوبات الزاجرة على أشكال الإغواء بسلوك أفضل، ومرجحين كفة العصا الغليظة على كفة الجزرة. يميل الأمريكيون إلى توخي الحسم النهائي في الشئون الدولية: يريدون رؤية المشكلات محلولة، ومنابع التهديد مجففة. وبالطبع فإن الأمريكيين يتسارع تحولهم نحو تبني النزعة الأحادية في الشئون الدولية. إنهم أقل ميلاً

إلى العمل عبر المؤسسات الدولية الشبيهة بالأمم المتحدة، وأقل استعدادًا للعمل بالتعاون مع الدول الأخرى لتحقيق أهداف مشتركة، وأكثر ارتيابًا من القانون الدولي، وأكثر استعدادًا للتحرك خارج شباك هذا القانون، عندما يجدون ذلك ضروريًّا، أو حتى مفيدًا وحسب».[١]

ورغم أهمية معرفة واقع الشعوب من الداخل، من النواحي الاجتماعية والاقتصادية، فلا ينفي هذا أو يتعارض مع أهمية إدراك الدور الذي تقوم به النُّخَب السياسية الحاكمة، أيضًا، في توجيه السياسات الداخلية والخارجية للدول. ويذكر أحد المفكرين العرب ما يؤكد هذا المعنى قائلاً: «إن الشعوب ليست هي التي تتخذ القرارات، ولكنها النخب السياسية الحاكمة. وهذه النخب، بحكم مصادر القوة المتعددة التي تمتلكها، تسمح لها باتخاذ قرارات في السلم والحرب، مضادّة تمامًا لمصالح شعوبها؛ تحقيقًا لمصالحها الطبقية، أو للمصلحة الاستراتيجية للدولة كما تتبلور في إدراك هذه النخبة في لحظة تاريخيةٍ ما، وقد يكون هذا سوء إدراك، وليس إدراكًا موضوعيًّا لتوازن القوى في لحظةٍ ما... ولو نظرنا مليًّا إلى حالة الولايات المتحدة الأمريكية لوجدنا الإدارات الأمريكية المختلفة، جمهورية كانت أو ديمقراطية، في مجال السياسة الداخلية تخضع لتأثير جماعات الضغط وجماعات المصالح، وتُصدر تشريعات لمصلحة الأقلية من كبار رجال الأعمال، الذين يمثلون الشركات العملاقة، مما من شأنه أن يضر ضررًا بليغًا بمصالح الجماهير العريضة.. ولو ولينا وجهنا إلى القرارات في مجال الحرب لوجدنا أن الإدارة الأمريكية سبق أن اتخذت قرارًا خطيرًا أدى إلى تورط الولايات المتحدة في حرب فيتنام، بزعم مكافحة الشيوعية والحدّ من توسعها، مما أدى في النهاية إلى ثورة الجماهير الأمريكية ضد الحرب، بعد ما تساقط الآلاف من الجنود الأمريكيين، وظهرت الهزيمة الأمريكية الساحقة في الحرب للعيان... أين كانت الجماهير المتعلمة الأمريكية حين اتُّخِذَ قرار الحرب؟»[٢]

يؤكد كل ما سبق حاجتنا الماسّة إلى دراسة الغرب، والولايات المتحدة تحديدًا؛ بهدف فهم جميع القوى المؤثرة على قراراتها السياسية المتعلقة بأمتنا، وأفكارها ومدّها الثقافي، الذي يحاول التأثير على مجتمعاتنا وهويتنا، وكذلك اقتصادها الذي يسعى للسيطرة والنهب، واستغلال موارد العالم أجمع. وبدون فهم صحيح ومتجدد لواقع الغرب، لن نُجيد التعامل معه، ولن نُحسن فهم أسباب تراجعه الوشيكة، أو كيف يمكن الاستفادة من ذلك التراجع. إننا في عالم تحاول أمريكا بأشكال متعددة إفسادَه من ناحية، وتأخير إدراكه لتراجعها من ناحية أخرى.

ولنتتبع تسلسل المنطق لهذه الخطة، كما عبَّر عنه المفكر فيجاي براشاد، لنرى مدى عمق تورط الولايات المتحدة في إفساد العالم، ومدى تدخُّل العوامل الداخلية الاجتماعية والاقتصادية بالقرارات الدولية الخارجية، التي تحاول أمريكا فرضها على العالم. يقول فيجاي براشاد: «يمول دافعو الضرائب الأمريكيون الجيش، ثم يفوِّض البنتاجون مقاولين لبيع أسلحة للعراق في الثمانينيات، وبعد ذلك توحي سفيرة بوش، بمساندة من البنتاجون، إلى صدام أن لديه ضوءًا أخضر لغزو الكويت، ثم يهاجم بوش العراق، وتوجد حالة حرب مستمرة. وبعد ذلك يموِّل دافعُ الضرائب المسكين، مرة أخرى، حرب الخليج، ونشر القوات الهائل الذي ما فتئ يخلق اختناقًا في الجزيرة العربية ومحيطها. وتضطر الكويت للاستجابة لهذا بأن تمنح جائزة الطاقة، ليس لدافع الضرائب الأمريكي، بل للشركات الخاصة غير القومية. وبعدها يتحمل دافعو الضرائب نفقات الحرب، وتجني الشركات الخاصة الأرباح»[٣]

وسياسة الإفساد الدولي هذه ليست جديدة، وإنما كانت دائمًا جزءًا مكوِّنًا ورئيسًا من السياسات

(١) «عن الفردوس والقوة»، «أمريكا وأوروبا في النظام العالمي الجديد»، روبرت كيجان، الحوار الثقافي، ٢٠٠٤م، ص٩.

(٢) الإمبراطورية الأمريكية، الصراع ضد الهيمنة الأمريكية، السيد يسين، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٤م، ص٧١.

(٣) القطط السمان والكلاب اللاهثة، فيجاي براشاد، ترجمة: د. فاطمة نصر، سطور، ٢٠٠٣م، ص٨٧.

الأمريكية نحو العالم. فقبيل حرب كوريا في عام ١٩٥٠م، أبرز التقرير الذي حدَّد الخط السياسي للولايات المتحدة الأمريكية هذه النية في الإفساد، من خلال المذكرة السياسية لمجلس الأمن القومي (NSC ٦٨)، المحرَّر من قِبل بول نيتز، والذي خلف أحد أهم الشخصيات السياسية في الحياة الأمريكية وهو جورج كينان الذي ترأس إدارة الدولة لفريق التخطيط. وقد استُبعد جورج كينان هذا؛ لأنه عُدَّ شغوفًا أكثر مما يجب بالسلطة، ولأنه قد كتب في عام ١٩٤٨م: «نحن نملك حوالي ٥٠٪ من ثروة العالم، غير أننا نمثل ٦,٣٪ من سكانه فقط.. وفي مثل هذا الوضع، لا يمكن تجنب أن نكون هدفًا للضغينة والغيرة. فمهمتنا الحقيقية، في الفترة القادمة، هي تطوير نظام للعلاقات يسمح لنا بالحفاظ على هذه المكانة، دون تعريض أمننا القومي للخطر. ولتحقيق هذا؛ علينا أن نتخلص من أيّ عاطفة، وأن نَكُفّ عن الحلم، وأن نبقى متيقظين. ويتعين أن يكون كل تركيزنا مُنْصَبًّا على أهدافنا القومية المباشرة والفورية، وألا يصيبنا الغرور. ولا يمكن أن نسمح لأنفسنا اليوم باتباع رفاهية حب الغير والخير على الصعيد العالمي. وينبغي أن نتوقف عن الحديث عن أهداف كبيرة غير محددة، فيما يخص الشرق الأقصى، فهو غير قابل للتنفيذ، وكذلك حقوق الإنسان، ورفع مستوى المعيشة، وإرساء الديمقراطية. ولن يكون بعيدًا اليوم الذي سيكون علينا فيه استخدام القوة».(٤)

ومع كل ما سبق، فإن محاولات الإفساد والتدخل في شئون العالم، والسعي إلى نهبه، والسيطرة عليه، لم تؤدِّ في مجموعها إلا إلى انتقال تدريجي بطيء نحو تراجع القدرة على السيطرة خارجيًّا، وبروز معالم الانهيار الاجتماعي الداخلي تدريجيًّا أيضًا، ثم ظهور ضعف الآلة العسكرية الهائلة عن تحقيق انتصارات استراتجية، رغم التفوق العسكري، وأخيرًا تحول الاقتصاد الأمريكي من اقتصاد مستقل قوي يقود العالم إلى اقتصاد استهلاكي تابع يستغل العالم من أجل الموارد، ويحتاجه أيضًا من أجل أن يبيع له ما ينتجه، وقد اجتمعت كل هذه الدلائل والمؤشرات معًا؛ لتشير إلى حالة من التراجع الدائم للقوة الأمريكية في عالم الغد.

متى بدأ التراجع الأمريكي؟

بدأت مظاهر التراجع الأمريكي في الظهور على المستوى الاجتماعي والأخلاقي والفكري مبكرًا، وقبل ظهور التراجع الاقتصادي والعسكري بفترات طويلة. لقد بدأ التردي الأخلاقي والاجتماعي في الولايات المتحدة الأمريكية منذ عقود طويلة، ولذلك فمن المهم أن نتفهم أثر ذلك التردي على السياسات الخارجية الأمريكية، وعلاقة ذلك بالعالم العربي والإسلامي. لقد ذكر داعية حقوق الإنسان الأمريكي الشهير مارتن لوثر كينج العبارة التالية، التي تلخص واقع الولايات المتحدة الأمريكية، الذي بدأ في التدهور الأخلاقي منذ عقود طويلة، عندما تحدث عن «أخلاقيات منتصف الليل»، كما أسماها في عام ١٩٦٣م قائلاً: «إن منتصف الليل هي الساعة التي يسعى فيها رجال أمريكا بهمة إلى العمل بالوصية الحادية عشرة .. وهي «لن تُضْبَط متلبسًا». إن الخطيئة الكبرى -وفق أخلاقيات منتصف الليل- هي أن تُضبط متلبسًا، وفي المقابل فإن الفضيلة العظمى هي الإفلات. الكذب مستباح، إلا أن عليك أن تكذب بلباقة وحرفية.. لقد حلت فلسفة البقاء للأكثر دهاء محل مفهوم داروين عن البقاء للأصلح. وقد عملت هذه العقلية على انهيار المعايير الأخلاقية، وازدياد عمق الانحلال الأخلاقي».

إن الأحداث التي مرت بها أمريكا خلال السنوات الماضية أظهرت الخلل الكبير والكارثي الذي يمر به المجتمع الأمريكي. ويعبِّر عن ذلك أحد الكتاب الأمريكيين قائلاً: «هناك جميع أنواع المساومات التي يتباحث حولها الأغنياء، أو ذوو النفوذ في أي مجتمع مع الفقراء.. من خلال الخبز أو السيرك أو الصدقة، أو الوعد بأن الجميع سينجون. الصفقة هي: لا تسبِّبوا لنا أية مشاكل، وسنعتني بكم. ولكن تنهار الإمبراطوريات عندما يصبح العرض خاويًا، وكأنه يقول: لن نعتني بكم، أو: لا نستطيع

(٤) «دراسات سياسة التخطيط : P.P.S لـ٢٣ فبراير ١٩٤٨م».

أن نعتني بكم .. أو: نحن لم نعد بحاجة لكم، ولم نعُدْ نخشاكم. وقد بلغنا هذه النقطة هنا».(٥)

هناك من يرى أن الولايات المتحدة قد انقسمت فعليًّا إلى أمريكيتين: الأولى هي بلد العالم الأول الذي يرفل في ثوب الرفاهية، أما البلد الثانية فإنها تلك التي تنتمي إلى العالم الثالث؛ حيث المعاناة من شظف العيش والأوضاع المُزْرِية التي تتوارى عن أعين وأقلام الصحفيين. وتبقى الحقيقة أن غضّ الطرف عن الواقع لا يعني مطلقًا أنه غير موجود، وإهمال المشكلة ليس مرادفًا لحلها.(٦)

لقد اكتشف كثير من المفكرين في الولايات المتحدة الأمريكية في الأعوام الأخيرة، وعقب الكثير من الحوادث والكوارث الطبيعية، مدى هشاشة وضعف البنية الاجتماعية الأمريكية، وهو ما يعيق بقوة أيّ مشروع حضاري حقيقي تدّعي الولايات المتحدة زعامته. يعبر فيليب كينيكوت -وهو ناقد ثقافي في الواشنطن بوست- عن حقيقة تلك المأساة قائلاً: «إن الكوارث لا تعلمنا أبدًا أيّ شيء جديد، بل هي مجرد دروس قديمة يتم تقليبها. إننا ضعفاء.. وعالمنا هو اتفاق أو تسوية مبرمة مع قوة يمكنها أن تمزقه من وقت لآخر. تكشف الكارثة عن الطبيعة البشرية. ولذلك فإنها غالبًا ما تُظْهر الصالح والطالح في الطبيعة البشرية التي تكون مستورة».(٧)

وتنبأ العديد من المفكرين الغربيين بزوال الحضارة الغربية، وأرجعوا ذلك في المقام الأول لأمور مرتبطة بالواقع الداخلي الأمريكي والغربي، وليس لقوًى خارجية أو هزائم عسكرية، رغم وجود هذه العوامل أيضًا. ومن بين هؤلاء المفكر الأمريكي الجمهوري المحافظ «بات بيوكانن»، والذي كتب كتابًا أسماه «موت الغرب»، ذكر فيه مؤشرات هامة لبداية النهاية في الولايات المتحدة الأمريكية والغرب بشكل عام، وأرجعها إلى انخفاض معدلات المواليد، وذوبان العائلة، واندثارها كوحدة اجتماعية، وعزوف النساء عن الحياة الطبيعية التقليدية؛ مثل: الزواج، وإنجاب الأطفال ورعايتهم، وعزوف الشباب عن مؤسسة الزواج، وشيوع الجنس، والشذوذ، والحماية القانونية لهذه النَّزَعَات غير السوية.

وهناك أيضًا من ينتمي إلى مدرسة الديمقراطيين الليبراليين، ولكنه يرى نفس المستقبل من ناحية التراجع الأمريكي، ومثال ذلك المفكر الأمريكي «بول كنيدي» الذي قدَّم في كتابه، صعود وهبوط الدول الكبرى، تحليلاً علميًّا تاريخيًّا لتكوُّن الإمبراطورية، وتنبأ بانهيار الإمبريالية الأمريكية بفعل الامتداد الجغرافي المفرط بمناطق سيطرتها، وعجز الموارد الاقتصادية الأمريكية عن سدّ متطلبات حماية هذه الإمبراطورية.(٨)

أما مانويل فارلشتاين، الباحث في جامعة ييل الأمريكية، ومؤلف كتاب «نهاية العالم كما نعرفه: السلام الأمريكي انتهى»، فيقول في مقال له: «إن توجهات الصقور المحافظين الأمريكيين الراهنة؛ لفرض الهيمنة الأمريكية بالقوة، ستفشل لأسباب عسكرية واقتصادية وأيديولوجية، فأمريكا لن تستطيع تحمل الخسائر البشرية والمادية الباهظة لأدوارها العسكرية»، ويضيف: «السؤال الآن هو: هل تخبو الولايات المتحدة بهدوء، أم سيقاوم المحافظون الأمريكيون ذلك، ويحوِّلون الانحدار التدريجي إلى سقوط خطر وسريع؟»(٩).

كما يعتقد المفكر موريس بيرمان في كتابه «غروب الثقافة الأمريكية» أن موارد أمريكا الثقافية مُجْهَدَة، أو تم استهلاكها، وما هذا الازدهار للوحدة الثقافية في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر إلا شهقة النفس الأخيرة، ربما شهقة مجتمع مستنفَد يتشظى تشظيًّا متسارعًا، على حد قوله.

(٥) من «ميتش» إلى «كاترينا» الكسندر كوكبيرن، «قراءات غربية»، نشرة عدد ١٤٢٦/٨/٨هـ.، الولايات المتحدة الأمريكية.

(٦) كارثة كاترينا تعيد الفقراء الأمريكيين للأضواء، روزا بروكس، «قراءات غربية» نشرة عدد ١٤٢٦/٦/٨هـ، الولايات المتحدة الأمريكية.

(٧) ملاذنا الآمن تحطم كما يتحطم الزجاج، فيليب كينيكوت، ناقد ثقافي في الواشنطن بوست. خدمة (لوس أنجلوس تايمز- واشنطن بوست) ١٤٢٦/٧/٣٠هـ.

(٨) «ما بعد الإمبراطورية»، «دراسة في تفكك النظام الأمريكي»، إيمانويل تود، دار الساقي، ٢٠٠٣م، ص١٣.

(٩) مجلة فورن بوليسي، Foreign Policy، عدد يوليو – أغسطس ٢٠٠٢م.

المعالم الداخلية للتراجع الأمريكي:

المواليد والهجرة:

يرى المفكر الأمريكي «بات بيوكانن» أن أكبر خطرين يهددان الغرب عمومًا يتلخصان في نقطتين: انخفاض معدلات المواليد، وموجات الهجرة. ويؤكد -كما ينقل عنه الدكتور عبدالله النفيسي في قراءة مفصلة لكتابه «موت الغرب»- أنه يُرجِع انخفاض معدلات المواليد في الغرب إلى رؤية اجتماعية شائعة هناك؛ بأن هدف الحياة هو (اللذة Pleasure) بكل أشكالها، وأن مؤسسة الزواج والعائلة باتت عبئًا لا داعي له طالما أن الشيوعية الجنسية هناك تلبي حاجة اللذة. لذلك يقول بوكانان سنلاحظ أن معدلات المواليد في انخفاض مستمر، وأن الوعاء السكاني الغربي في انكماش مستمر. كما أصبحت المرأة الغربية -كما يؤكد بوكانان- مركز هذه الموجة وإكسيرها؛ بحيث أصبحت تعزِّز هذا الاتجاه في المجتمعات الغربية من خلال صورة (المرأة العاملة Career woman) غير المعنيَّة بشئون البيت والزوج والأطفال.

ومن جهة أخرى -يقول بوكانان- هناك موجات من الهجرة الضخمة mass immigration القادمة من العالم الثالث، وخاصة العربي والإسلامي للاستقرار في ديار الغرب، حاملة معها أنساق نموها العددي، وارتفاع نسبة المواليد لديها، وكينونتها الثقافية المنفصلة سيكولوجيًّا عن الغرب. ويذكر إحصائية هامة، وهي أنه في سنة ١٩٦٠م كان العنصر الأبيض في العالم يشكِّل ربع سكان العالم، وفي سنة ٢٠٠٠م أصبحوا سدس العالم، وأما في سنة ٢٠٥٠م فلن يتعدوا عُشر سكان العالم، وأن هذا الأمر برُمَّته يشير إلى ما أسماه «انتحار الغرب»، أو الموت البطيء له.

وقد أظهر استطلاع أجرته مؤسسة (بيو) للأبحاث في نهاية عام ٢٠٠٧م ضعفًا للترابط بين الزواج والرغبة في إنجاب الأطفال؛ إذ أكد ٤١٪ فقط من المشاركين في الاستطلاع على أهمية الأطفال بالنسبة للحياة الزوجية، مقارنة بتلك النسبة التي كانت ٦٥٪ في عام ١٩٩٠م، كما أن وجود الأطفال كسبب للحياة الزوجية الناجحة قد تراجع إلى المرتبة الثامنة بين قائمة أسباب الزيجة الناجحة، حسب نفس الاستطلاع. إنه انتحار حقيقي وبطيء للمجتمع الأمريكي.

هناك من ينظر إلى نفس الأمر من زاوية مختلفة ترى أن الولايات المتحدة لا تعاني من الشيخوخة، وإن كان هناك تراجع في معدلات المواليد، ولكنه لا ينذر بالخطر؛ وفقًا للتقارير الأمريكية السكانية. فقد أصدر المركز القومي الأمريكي لإحصاءات الصحة تقريرًا يبين انخفاض عدد حالات الحمل عام ١٩٩٩م، بنسبة ٧٪ عن ذُرْوَته عام ١٩٩٠م. كما انخفض معدل المواليد ٩٪ خلال تلك الفترة في الولايات المتحدة. وأن الهجرة إلى أمريكا تنبع، في الغالب، من دول أمريكا الجنوبية وأمريكا اللاتينية، وليس من الشرق الأوسط، وهذه الهجرات تأتي من مجتمعات تدين بنفس الدين السائد في القارة، وهو المسيحية. فقد وصل عدد المهاجرين إلى أمريكا في العام إلى قرابة ١.٢ مليون مهاجر، معظمهم من أمريكا اللاتينية، مقابل أقل من ٢٠٠ ألف مهاجر سنة ١٩٧٠م.

ويميل المفكرون الأمريكيون إلى أن المهاجر يجب أن «يذوب في هوية المجتمع الأمريكي»، وأن الولايات المتحدة هي بوتقة كبيرة تندمج فيها أفكار المهاجرين، وتذوب في النهاية ضمن فعاليات المجتمع. وقد يكون لهذه الهوية تأثير محدود على هذا المجتمع، ولكن المهاجر عليه أن يتخلى في النهاية عن هويته الأصلية؛ لكي يعتنق الهوية الأمريكية. ولذلك فمن المتوقع من المهاجر أن يقبل بالذوبان ضمن الهوية القومية للدولة. وقد تنامت حدة هذه المطالبة من الجالية المسلمة تحديدًا بعد أحداث سبتمبر.

وقد أجرت الأكاديمية المعروفة إيفون حداد Yvonne Haddad دراسة عن مواقف المهاجرين المسلمين في أمريكا من مسألة العلاقة بين الرجل

والمرأة خارج إطار الزوجية Dating، فوجدت أن الجيل الأول من المهاجرين يرفضها تمامًا، بينما يعترض عليها الجيل الثاني اعتراضًا فكريًّا ودينيًّا، ولكنه يتفهمها واقعيًّا. أما الجيل الثالث من المهاجرين فيغلب عليه ممارسة هذا الأمر، رغم مخالفته لتقاليد ودين الأقلية المسلمة. استخلصت الباحثة من ذلك أن تذويب المسلمين في المجتمع الأمريكي يحتاج إلى ثلاثة أجيال، ولكنه يتم في نهاية الأمر.

تأثير الهجرة على الديمقراطية الأمريكية:

لا تزيد نسبة من وُلدوا خارج أمريكا من بين مواطنيها اليوم عن ١٠٪. كما أن تيار الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية قد انخفض بشكل ملحوظ بعد أحداث سبتمبر. فقد أعلنت إدارة مراقبة الحدود الأمريكية أنها كانت تنفذ ما يقارب من مليوني ساعة عمل في العام في مراقبة الحدود الأمريكية، وارتفع هذا الرقم مؤخرًا ليصبح خمسة ملايين ساعة سنويًّا. وساهم ذلك بدرجةٍ ما في تقليل عدد المتسللين عبر الحدود، ومن ثَم تقليل نسبة الهجرة غير القانونية إلى الولايات المتحدة.

والطريف في مشكلة التعامل مع المهاجرين بِبُعْدَيْهَا: الفكري، والعملي، أنها تُعيد صياغة تجربة الديمقراطية في الغرب. فقد استقر الفكر الغربي في السابق على أن الديمقراطية هي «حكم الأغلبية بين مواطنين متساوين في الحقوق»، وهو التعريف الشائع للديمقراطية الليبرالية، الذي يعتبر المواطنة شرطًا ضروريًّا للمشاركة السياسية.

أما أنصار المدرسة الفكرية الجديدة؛ فإن التجربة الديمقراطية تميل في تعريفهم إلى أنها «المشاركة في السلطة بين مجموعات عِرْقية تتكون من مواطنين ومهاجرين». فرغم أن المهاجر لا يملك بالضرورة حق التصويت واختيار المرشحين؛ لأنه ليس مواطنًا في الدولة، إلا أن قوة الأقليات المكونة من مهاجرين ومواطنين قد أصبحت أحد المحاور الهامة التي تشكّل العملية الانتخابية، وتتحكم في توجهات المرشحين وأفكارهم. وبالتالي فهي تؤثر على التجربة الديمقراطية بصورة مباشرة تتجاوز صناديق الاقتراع إلى فكر المرشحين وبرامجهم العملية.

وأصبح كثير من المرشحين يُبْدُون اهتمامًا ملحوظًا في برامجهم الانتخابية بالتقرب إلى المهاجرين، من

خلال بعض البرامج الاجتماعية، التي تهدف إلى تصحيح أوضاعهم القانونية، ومساعدتهم على الحفاظ على حقوقهم المدنية. ولذلك فقد كتب أحد المفكرين الأمريكيين البارزين، وهو جايمس بلانكس James Blanks في عام ١٩٩٤م عن هذا التحول قائلاً: «لكي ننجح في إقامة تجربة ديمقراطية حقيقية؛ ذات سلطة أخلاقية، وقبول قانوني، فإن الأعراق المختلفة لا بد أن تتبادل وتتقاسم السلطة».

وهذه الرؤية ستؤدي، في الغالب، إلى المزيد من التراجع الأمريكي الدولي؛ لأن اهتمامات المهاجرين في أغلبها محلية، وترتبط بالواقع الداخلي، كما أن معظم المهاجرين ليسوا من أنصار مشروع الهيمنة الأمريكي.

الفقر:

وصل عدد الذين يسكنون الشوارع بلا مأوى (Homeless People) في الولايات المتحدة الأمريكية ما يقرب من عشرين مليونًا من أفراد الشعب. هذا في الوقت الذي لا تزال الولايات المتحدة تستقبل أعدادًا ضخمة من المهاجرين سنويًّا من مختلف أنحاء العالم.

في ١١ أغسطس عام ١٩٢٨م، تنبأ الرئيس الأمريكي هربرت هوفر أن «البطالة كمحنة في سبيلها للتلاشي على نطاق واسع. ومضى قائلاً: إننا اليوم في أمريكا قد اقتربنا من الانتصار النهائي على الفقر، أكثر من أي وقت مضى في التاريخ، وفي أي بلد آخر. يتلاشى وجود ملاجئ الفقراء بيننا. لم نصل إلى الهدف بعدُ، إلا أنه مع إتاحة الفرصة للمضي قُدمًا في سياسات السنوات الثماني الأخيرة، سرعان ما سنصبح على مرأى من اليوم الذي يختفي فيه الفقر من هذا البلد، بعون الله». فعلاً، كان هوفر محقًّا، فقد اختفى الفقر، فهم الآن يعيشون بمنأى عن الأنظار في السجون، أو في أكواخ أشبه بالزرائب في المساكن الشعبية المكدسة. تقوم الولايات المتحدة بوضع أعداد كبيرة من سكانها خلف القضبان، وتنفق المزيد من الأموال على قوات الشرطة، ومكتب المباحث الفيدرالية، ولديها قوات مسلحة أكبر من أية دولة أخرى على الكوكب[١٠].

وفي عام ١٩٩٤م، قال الكاتب ليبروديلا بيانو: «يتحرك مجتمعنا باتجاه الوصول إلى مرحلة لا يوجد بها سوى طبقتين اجتماعيتين: السجناء والشرطة». وكان موريس ثيجن، مدير المعهد القومي لإصلاح المنحرفين أكثر تفاؤلاً بهذا الشأن؛ إذ قال: «يتندر الناس بالقول: إننا في سبيلنا إلى اليوم الذي يصبح فيه جميع الأفراد إما سجناء، أو يقومون على إصلاح المنحرفين».

إن الفقر الذي نتحدث عنه في واقع أمريكا اليوم ليس بسبب نقص الموارد، أو فقر الدولة، وإنما هو بسبب سياسات اقتصادية تهدف إلى تهميش قطاع كبير من المجتمع بشكل بشع ومستمر. وكما يذكر أحد الباحثين الأمريكيين في هذا الشأن؛ فإن «الأمر لم يكن هو فشل من بيدهم الحكم في إدراك ما يُنزلونه بالبقية في الولايات المتحدة، وبالعالم. ففي ٢٠ يونيو عام ١٩٩٧م، لخَّص ستيفن روتش، من شركة مورجان ستانلي، الأمر بمهارة أمام منتدى مجموعة السبعة (أصبحت الآن مجموعة الثمانية)، الذي عُقد في دنفر بالولايات المتحدة، في سياق زيادة الثروة، بيَّن روتش: «أن العامل الأمريكي دفع فاتورة هذه النجاحات في شكل المصاغرة (الإنتاج بحجم أصغر)، وضغط الأجور الفعلية، وتصاعد عدم مساواة توزيع الدخل، والإحساس العميق بعدم الأمان الاقتصادي.

في نفس ذلك العام قدم «صندوق الدفاع عن الأطفال» تقريرًا؛ يتردد فيه أصداء تفاعلات وتغيرات وضع الثراء في الولايات المتحدة، جاء فيه «احتمال فقر الأطفال في أمريكا هو ضِعْفه في بريطانيا، وثلاثة أمثاله في فرنسا أو ألمانيا، وستة أضعاف احتمال فقر الأطفال في بلجيكا، أو الدانمارك أو سويسرا». هذا بالإضافة إلى «أن راتب الآباء الشبان المتزوجين انخفض بمعدل ٣٠٪ فيما بين عامي ١٩٧٣م و١٩٩٤م. وأخفى تنامي دخول الأمهات المتزوجات منذ عام ١٩٩٤م هذه الخسائر جزئيًّا في إحصائيات دخل الأسرة. تعوِّض عائلات كثيرة بعض ما تفقده من دخلها بالعمل ساعات أطول. وعلى حين كان

(١٠) القطط السمان والكلاب اللاهثة، فيجاي براشاد، ترجمة: د. فاطمة نصر، سطور، ٢٠٠٣م، ص٢٧٨.

معدل الأُسَر الشابة التي تعاني الفقر عام ١٩٧٣م هو ٦٪، أصبح ما يقرب من ١٦٪ منها يعانون الفقر الآن».(١١)

لقد ازدادت في الولايات المتحدة نسبة الذين يعتقدون باتساع الفجوة في المجتمع بين الأغنياء والفقراء؛ حيث يعتقد نحو ٧٣٪ ممن شاركوا في استطلاع لمركز (بيو) أُجري في نهاية عام ٢٠٠٧م، ولأول مرة منذ ١٥ عامًا، أن الغنيّ يزداد غنًى، بينما يزداد الفقير فقرًا.

الجريمة:

اعترفت شركة إس. إن. هتون بارتكابها ٢٠٠٠ جريمة في عام ١٩٨٥م، وهو رقم ربما لا يستطيعه سوى القلة من المجرمين المنفردين، حُكم على الشركة بغرامة قيمتها مليوني دولار فقط. وأيضًا اعترفت شركة برودينشيال سيكوريتز أنها ارتكبت تدليسًا في بيعها استثمارات قيمتها ١.٤ بليون دولار، واحتالت على ١٢٠٠٠٠ شخص، فلم تدفع سوى ٣٧٥ مليون دولار غرامة. يتساءل الصحفي كيرت آيشنوالد «كيف يفوق احتمال سجن من يسرق مخزنًا للخمور، احتمال سجن من يحتال على ما يعادل نصف مجموع سكان مدينة متوسطة الحجم؟»، ترجع الإجابة إلى طبيعة احتيال الأعمال، ومعايير الأدلة المتشددة في نظام العدالة الجنائية. ليس البرهان على وجود ضحايا كافيًا، أو البرهان على أن البعض قد كوَّن ثروة من معاناة الآخرين. تقتضي أحكام الدولة البرهان على عناصر كثيرة في الجريمة، تبدو بعضها شديدة الشبه بمعايير الجودة الصناعية».

وهناك تزايد في نِسَب العنف يتخلل النسيج الاجتماعي من عناصر أمريكية، وليس عناصر دخيلة عليهم، وقد انتشرت في الأعوام الأخيرة ظواهر قيام طالبٍ ما بقتل أقاربه، أو زملاء دراسته في المدرسة، والذهاب إليها محملاً بالأسلحة! ليقتل عددًا منهم دون أي سبب حقيقي لذلك، وهي ليست حوادث فردية، ولكنها تتكرر بشكل واضح في الأعوام الأخيرة.

الجريمة في أمريكا قد تكون مقنَّنة أيضًا من الناحية الدستورية، ولكنها مدمرة اجتماعيًّا وأخلاقيًّا وحضاريًّا أيضًا. يذكر أحد المفكرين الغربيين أنه تم في أمريكا وحدها أكثر من أربعين مليون عملية إجهاض، منذ أن حكمت المحكمة الدستورية هناك بأن الإجهاض (حق دستوري للمرأة الأمريكية)، وهي جريمة اجتماعية في نظر المفكر ستؤدي إلى انتحار الغرب وزوال أمريكا.

انحلال الأخلاق:

يذكر الدكتور عبد الله النفيسي، نقلاً عن الكاتبة الغربية فاليري سولانيس، أنها ترى أن المرأة تستطيع فنيًّا technically أن تستغني عن الرجل في الاحتياجات الجنسية، وحتى في إنجاب الأطفال، لا بل وإنجاب البنات فقط، ولذلك أسست تلك المرأة جمعية مشهورة وقانونية أسمتها «جمعية الاستغناء عن الرجل Society For Cutting up men»، وكتبت في تقديم هذه الجمعية أن «الرجال خطأ بيولوجي يجب أن تصححه المرأة، وأن الذكور قد حوَّلوا العالم إلى [كومة من القاذورات]».

وفي إحصائية جمعها كتاب المؤلف الأمريكي جايمس باترسون، «يوم أن اعترفت أمريكا بالحقيقة»، يذكر المؤلف أن ٧٤٪ من الأمريكيين لا يمانعون من السرقة، إن كانت الفرصة سانحة، وأن ٦٤٪ منهم لا يرون في الكذب مشكلة ما دام مناسبًا، ولا يُعرِّض حياة الغير للخطر، وأن ٥٣٪ من الرجال والنساء يمكن أن يخونوا أزواجهم، إن سنحت لهم الفرصة. أليس من المخجل اجتماعيًّا أن يحتل الاغتصاب المرتبة الثانية في خطورته على المجتمع الأمريكي، وأن الطفولة المثالية البريئة، كما يقولون، لم يعد لها وجود في ذلك المجتمع؛ بناء على الدراسات التي غطَّت معظم ولايات أمريكا.. فكثير من الفتيات الأمريكيات يفقدن بكارتهن قبل سن الثالثة عشرة! وإن مفهوم الزواج لم يعد يمثل أهمية، بل إن نسبة الثلث من الرجال والنساء

(١١) القطط السمان والكلاب اللاهثة، فيجاي براشاد، ترجمة: د. فاطمة نصر، سطور، ٢٠٠٣، ص١٢٦.

المتزوجين، الذين شملتهم عينة الدراسة، اعترفوا أنهم كانت لهم علاقات جنسية غير شرعية! وأن هناك نسبة كبيرة من الأمريكيين لا يهتمون بوالديهم عند كبرهم. وأن نسبة واحد من كل سبعة أشخاص يحمل سلاحًا؛ إما معه شخصيًّا أو في سيارته، كما تذكر الدكتورة نورة السعد في دراسة لها.

ليس هدف هذا البحث تجريم المجتمع الأمريكي بأكمله، أو وصفه بالانحلال، ولكنه بالتأكيد مجتمع تفشَّت فيه مظاهر الانحلال الأخلاقي بشكل كبير، وأثرت على تركيبة الأسرة الاجتماعية وتماسكها، وهو ما يهدد هذا المجتمع بشكل كبير.

الأمية والجهل:

تعرِّف الأمم المتحدة الأمية بأنها عدم القدرة على قراءة أو كتابة جملة بسيطة بأي لغة. وبناء على هذا التعريف، وبناء على دراسة أعدها المركز القومي الأمريكي للإحصاءات التعليمية National Center for Education Statistics عام ٢٠٠٣م، فإن ١٤٪ من المواطنين الأمريكيين البالغين لا يجيدون القراءة والكتابة، وهو ما يصل إلى ٤٠ مليون إنسان. وأن ما يزيد على نصف تلك النسبة لم يحصل على شهادة الثانوية العامة.

ويذكر الكاتب باول ريفز Paul Rivas، وهو محاضر الدراسات الحضرية في جامعة وسكونسن -اعتمادًا على دراسات وإحصاءات الرابطة القومية للتعليم National Education Association- أن الأمية لا تمثل مشكلة فئة أو شريحة واحدة في المجتمع الأمريكي؛ حيث تنتشر بين البيض والسود واللاتينيين بنسب متقاربة، كما أن نسبة الأمية في المدن الكبرى ٤١٪ تقترب من النسبة في القرى والبلدات الصغيرة ٥١٪. كما أن الأمية لا ترتبط بجيل كبار السن فقط؛ حيث إن ٤٠٪ ممن لا يعرفون الكتابة والقراءة هم من الشباب الذين تتراوح أعمارهم ما بين ٢٠ و٣٩ عامًا.(١٢)

كما تشير التقارير إلى أن نسبة الأمية بين البيض لم تشهد زيادة أو نقصان طوال العقدين الأخيرين، وهي ٣٧٪ من إجمالي عدد الأميين، بينما قلَّت نسبة الأمية بين السود خلال العقد الأخير إلى ٢٠٪ من إجمالي عدد الأميين. اللافت للنظر أن نسبة الأميين البيض، بين إجمالي عدد الأميين في الولايات المتحدة، أكبر من نسبتها بين السود، وهو ما يخالف الصورة الذهنية الشائعة، والتي ترى أن البيض أكثر تعلمًا وذكاءً من السود في أمريكا، وهي نتاج العنصرية الأمريكية التي يتم تصديرها إعلاميًّا وفكريًّا بأشكال مختلفة إلى كل أنحاء الأرض.

العنصرية في المجتمع الأمريكي:

قد لا يشكِّل التجانس العِرْقي، نتيجة الهجرة، مشكلة حقيقية في المجتمع الأمريكي، الذي يعاني من مشكلة أخرى، وهي التمييز بين الجنس الأبيض، وبين الأقلية السوداء، وهي مشكلة تاريخية، ولم ترتبط بالمهاجرين الجدد. ويذكر المفكر الفرنسي ميشال بوغنون أن أمريكا تقوم على فكرة الاستبعاد والعنصرية، مهما نفت ذلك بشدة. إنه استبعاد اقتصادي بامتياز، ما دامت السلطة الفعلية تصادرها طبقة المالكين؛ حتى وإن بدا ممكنًا حراك اجتماعي ما، جراء التمجيد لروح المقاولة، التي ستتاح أمامها فرصة التجلي التام، إبان التسابق إلى المناجم الذهبية وأراضي الغرب. لكن الاستبعاد ليس اقتصاديًّا وحسب. ففي الذهنيات تقوم رؤية مزدوجة القطب للواقع الذي يفرِّق فيه بين الحضارة (المسيحية، الغربية) من جهة، و«الوحشية» (الهنود ثم السود) من جهة أخرى. ويسعى الأمريكيون، وهم يعانون ضرورة تسويغ مولد أمتهم، إلى التمييز قدر المستطاع عن الأهالي المقيمين معهم في المجال عينه، لكنهم لا يتطابقون مع الصورة التي يكوِّنُونها عن أنفسهم؛ وعن الأوروبيين الذين انحدروا منهم، معلنين أنهم

(١٢) ٤٠ مليون أمريكي لا يجيدون القراءة والكتابة، نقلاً عن موقع «تقرير واشنطن» على شبكة المعلومات، جريدة السبيل الأردنية، ٧ نوفمبر ٢٠٠٦م.

أعلى كعبًا، وأنهم جاءوا برسالة مقدسة.(١٣)

ورغم أنه لأول مرة في تاريخ أمريكا يتقدم أمريكي أسود، كمنافس قوي لرئاسة البيت الأبيض، وهو باراك أوباما، لكن هذا التطور في وضع الأمريكان من ذوي الأصول الإفريقية قابله تشاؤم في نظرة المواطن الأمريكي - الإفريقي حول تحسن وضعه الاقتصادي والاجتماعي؛ حيث أشار استطلاع أصدره مركز أبحاث (بيو) في نهاية عام ٢٠٠٧م إلى أن ٤٤٪ من الأفارقة الأمريكان لا يعتقدون أن وضعهم سيتحسن في المستقبل، وكانت هذه النسبة ٥٧٪ في العام ١٩٨٦م، ويشعرون باتساع الهوة بين الطبقة الوسطى والفقراء منهم.

استغلال الدين سياسيًّا، وسقوط هيبة التدين اجتماعيًّا:

يستهل السياسي الأمريكي نيوت غينغريتش فصول كتابه «إعادة اكتشاف (الله) في أمريكا» بمقدمة بعنوان «الخالق والرأي العام الأمريكي» قائلاً: إنه لا يوجد هجوم على الثقافة الأمريكية أكثر خطرًا وأشد فتكًا من جهود اليسار الأمريكي العلماني؛ لإزاحة وإبعاد (الله) من حياة الشعب الأمريكي. كما أظهر المؤلف أيضًا تخوفه من تقلص دور الدين في الحياة العامة الأمريكية، قائلاً: «إن المحكمة، التي تُعتبر أحد أضلاع مثلث السلطة في الولايات المتحدة، قد ابتعدت كثيرًا عن الاعتراف بالدور المركزي للدين في حياة الأمريكيين، وضرورة انعكاسه في مؤسسات الجمهورية». ويرى المؤلف أن أمريكا تواجه خطرًا حقيقيًّا ليس فقط بسبب محاولة تهميش الدين وإزالته من الحياة العامة، وإنما أيضًا بسبب السعي إلى استثمار الدين سياسيًّا.

ولتأكيد ذلك، فقد جاء خبر في وكالات الأنباء يوم الأحد ٣٠ مارس من عام ٢٠٠٣م، مفاده ما يلي:

«طُلب من الجنود الأمريكيين الذين يشاركون في القتال ضد العراق الدعاء من أجل رئيسهم جورج بوش. ووُزعت كتيبات على آلاف من رجال مشاة البحرية (المارينز)، تحمل عنوان (واجب المسيحيين)، وتحتوي تلك الكتيبات على أدعية، كما تحتوي على جزء يتم نزعه من الكتيب لإرساله بالبريد إلى البيت الأبيض؛ ليثبت أن الجندي الذي أرسله كان يصلي من أجل بوش. وطبقًا لأحد الصحفيين المرافقين لقوات التحالف؛ فإن هذا الجزء يقول: (لقد صليت من أجلك، ومن أجل عائلتك وموظفيك، وجنودنا في هذه الأوقات التي تسودها حالة عدم اليقين والاضطراب. ليكن سلام الله إليك).

يقدم الكتيب، كما يذكر المفكر المصري الأستاذ السيد ياسين، والذي وضعته جماعة تسمى (آن كولين تنيستريز) صلوات يومية من أجل الرئيس الأمريكي، المعروف بأنه من «المسيحيين الجدد»، والذي يعمد دائمًا إلى ذكر (الله) في خطاباته. وتقول صلاة يوم الأحد (أدعو مَن أجد أن يلجأ الرئيس ومستشاره إلى الله وحكمته كل يوم، ولا يعتمدون على فهمهم الخاص). أما صلاة الاثنين فتقول (أدعو أن يكون الرئيس ومستشاره أقوياء وشجعانًا لعمل الصواب بغضّ النظر عن النقاد).(١٤)

> إن المعركة حول الدين في أمريكا تؤكد حالة الانقسام الحاد داخل ذلك المجتمع، وهو ما يلقي بظلاله على الحياة الأمريكية بأكملها.

وقد اختتم نيوت غينغريتش كتابه بالتأكيد على أن «الجهود الراهنة لإبعاد رؤية الآباء المؤسسين لدور الدين عن الحياة العامة للأمريكيين، هي المعركة التي يجب أن يخوضها الأمريكيون الآن؛ معتبرًا أن قاعات المحاكم والفصول الدراسية هي مركز وساحة المعركة؛ حيث إن هذين المكانين هما اللذين شهدا التحول الذي فرضه العلمانيون على أغلبية المجتمع الأمريكي». إن المعركة حول الدين في أمريكا تؤكد حالة الانقسام الحاد داخل ذلك المجتمع، وهو ما يلقي بظلاله على الحياة الأمريكية بأكملها.

(١٣) «أمريكا التوتاليتارية»، «الولايات المتحدة والعالم: إلى أين؟»، ميشال بوغنون – موردان، دار الساقي، لبنان ٢٠٠٢م، ص: ٣٣.

(١٤) راجع جريدة الحياة، الصادرة في لندن، بتاريخ ٣٠ مارس ٢٠٠٣م.

عدم الاهتمام بشئون العالم:

إن استطلاعات الرأي واضحة بشأن موضوع لا مبالاة الشعب الأمريكي بما يحدث في العالم. فاهتمام الأمريكيين بالأخبار، وخصوصًا عن البلدان الأجنبية، تضاءل بعد انتهاء الحرب الباردة. فليس هناك من «المهتمين جدًّا» بالأخبار عن البلدان الأخرى سوى ٢٩٪ من الجمهور الأمريكي. وهناك ٢٢٪ «لا يكادون يعيرونها اهتمامًا يُذْكَر». وعند طرح سؤال عن أكبر المشاكل التي تواجه البلد، شكَّلت السياسة الخارجية أصغر نسبة مئوية في أجوبة الجمهور (٧٪) (أما عند القادة فكان الرقم ١٩.٥٪).

«في عالم ما بعد الحرب الباردة، مع عدم وجود عقلية «نحن - ضد - هم» بوضوح محدد، فإن علاقة أحداث العالم تبدو أقل وضوحًا لكثير من الأمريكيين». وبعض الناس يصفون هذه المواقف بأنها «نزعة انعزالية طرية ناعمة». ويسميها آخرون «نزعة دولية أممية مخففة».(١٥)

ليس من الممكن توقع أن ترغب دولة في علاقات طيبة مع عالم لا تعرف عنه إلا القليل، ومن اللافت للنظر أن الرئيس الأمريكي، رغم كل انشغال إدارته الأمريكية بشئون الشرق الأوسط وهمومه، إلا أنه قد قام بزيارته الأولى في حياته لنفس المنطقة بعد سبع سنوات من حكمه، وشاع في أروقة الإدارة الأمريكية أنه حصل على جواز سفر لأول مرة في حياته بعد أن بدأ حملته الانتخابية لكي يصبح رئيسًا لأكبر دولة في العالم، أي أنه لم يسافر إلى أي دولة في العالم قبل أن يهتم بأن يكون رئيسًا للولايات المتحدة الأمريكية.

التحول إلى دولة بوليسية:

أظهرت أحداث سبتمبر أن الديمقراطية يمكن التضحية بها من أجل ما سُمِّي بالأمن القومي، ومحاربة الإرهاب، فقد قامت الولايات المتحدة لأول مرة في تاريخها عقب تلك الأحداث بإنشاء وزارة داخلية على نمط وزارات داخلية دول العالم الثالث، وبدأت في إجراءات أمنية متشددة، وقامت بتغيير القوانين؛ لكي تسمح بالكثير من الإجراءات الأمنية، التي كان يُنظَر لها في السابق على أنها من علامات الدكتاتوريات في الشرق، وفي الكيان الشيوعي قبل سقوطه، وإذا بها جميعًا تُطبَّق، وبسرعة، عندما تعرضت أمريكا للخطر.

ولقد حَذَّر اتحاد الحُريات المدنية بنيويورك، من انتشار الكَاميرات الأمنية في أَنحاء المدنية مما يُشكل تَهديدًا عَلى الحُريات الشخصية للمواطن الأمريكي، وذكر الاتحاد في تقريره أن عَدد الكَاميرات الأمريكية زَاد خمس مرات في أَجزاء من مدينة «نيويورك»، وأَصبحت ذَات تقنية وقُدرات عَالية، مما يُهدِّد الخُصوصية وحُرية التعبير والاتصال، كَما أشار الاتحاد أنه رَغم انتشار الكَاميرات بكثرة، إلا أنه لَم يَمنع تَراجع الجَريمة في «نيويورك»، فيما ذَكر التَقرير أنه خَلال العام ٢٠٠٥م، كَان هُناك (٤١٧٦) آلة تَصوير في ثَلاثة مَناطق في حي «منهاتن» الجنوبي، ارتفاعًا من (٧٦٩) عام ١٩٩٨.(١٦)

تأثير الواقع الداخلي الأمريكي على السياسات الخارجية:

إن أحد المشكلات الرئيسة التي تواجه دول العالم عندما تتعامل مع الولايات المتحدة الأمريكية، هو تلك القناعة المتجذرة في العقل الجمعي الأمريكي أن الولايات المتحدة «استثناء» تاريخي، وأن العالم لا غنى له عنها. وقد ترسخت هذه العقلية بشكل داخلي أولاً، ولكن يجري تصديرها على ألسنة الساسة والمفكرين والإعلام، رغم أن الواقع الحالي يشير إلى التراجع أكثر بكثير مما يشير إلى النهضة أو التقدم.

وفي عبارة بليغة، عشية القرن العشرين، يعبر مجلس الشيوخ الأمريكي عن رؤيته لدور أمريكا الكوني

(١٥) مفارقة القوة الأمريكية، جوزيف س. ناي (الابن)، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٣م، ص٢٤٢.

(١٦) عام ٢٠٠٦ هو عام التراجع الأمريكي، غسان مصطفى الشامي، شبكة المعلومات السوية القومية الاجتماعية، ٣٠ ديسمبر ٢٠٠٦م.

في مطلع القرن الجديد بما يلي: «على التجارة العالمية أن تكون تجارتنا، وستكون كذلك. فنحن سنملأ البحار بأساطيلنا التجارية، وسنبني أسطولاً على قدر عظمتنا. وسوف ترسم معالم طرقاتنا التجارية مستوطنات كبيرة، تحكم نفسها بنفسها، وترفع عَلَمنا وتعمل لأجلنا. أما مؤسساتنا فسوف تتابع علمنا على أجنحة تجارتنا. وسوف يبلغ القانون الأمريكي، والنظام الأمريكي، والحضارة والعَلَم الأمريكيان، الشواطئ المترامية والمعزولة حتى الآن، لكنها ستسطع قريبًا، بنعمة الله».

ونرى كذلك مؤخرًا أحد السياسيين الأمريكيين يقول: إن «أمريكا وحدها هي القادرة على قيادة العالم. فهي تبقى في الواقع الحضارة الواحدة الدولية الكونية في تاريخ البشرية. ففي خلال ٣٠٠ سنة سمح نظام ديمقراطيتنا البرلمانية المحترم لحقوق المواطن وللحريات الفردية والتبادل الحر، بأكبر قفزة اقتصادية في التاريخ. قِيَمُنا يستعيرها العالم أجمع. تكنولوجيتنا التي حوَّلت أنماط الحياة كانت العنصر الأول المحرك للعولمة. اليوم قواتنا العسكرية متمركزة في كل مناطق المعمورة؛ بناء على طلب الحكومات المضيفة، ليس لإخضاعها ولكن لتلبية الرغبة بالحرية وبالديمقراطية لهذه الحكومات ولشعوبها. أي حضارة أخرى نجحت في هيمنة مماثلة على العالم بدون قمع؟ أمريكا هي الأمة الوحيدة الكبرى... المتعددة الأعراق والتي تستخدم الحرية كدليل... إذا اختفينا غدًا فمن غير الواضح أن يكون لليابانيين أو الألمان أو الروس، كشعوب، الإمكانية أو القدرة على إدارة المعمورة. بدون حضارة أمريكية حية؛ فإن البربرية والعنف والديكتاتورية سوف تسيطر على الأرض».(١٧)

ويقول بول وولفوفيتز نائب وزير الدفاع السابق في نفس السياق: «ينبغي منع أية قوة معادية من السيطرة على مناطق؛ يمكن لثرواتها أن تجعل من هذه القوة قوة عظمى. كما ينبغي تثبيط عزيمة الدول الصناعية المتقدمة إزاء أية محاولة منها لتحدي زعامتنا، أو لقلب النظام السياسي والاقتصادي القائم، كما علينا التنبه والتوقع لأي بروز محتمل لمنافس لنا على مستوى العالم».

إننا في العالم الإسلامي لسنا وحدنا من يخشى من حماقات وتهور الإدارات الأمريكية التي تعاني من عدم إدراك واقع التراجع الأمريكي الحالي. وكما قال أحد المحررين الإيطاليين، فإن «التخوف الجماعي من الولايات المتحدة يبدو الصمغ الوحيد الذي يلصق الأوروبيين معًا. فالقصص المريرة القاسية عن عقوبة الإعدام في الولايات المتحدة، وإطلاق النار في مدارسها الثانوية، وسوقها التي لا تتسامح مع أحد، وانعدام الرفاهية فيها تنتشر بكثرة في الصحافة الأوروبية».(١٨)

إن أمريكا ترى أن سياساتها الخارجية، التي تنبع وتستمد قوتها من واقع تفوقها الداخلي، يجب أن تكون سياسة مهيمنة، ولا بأس أحيانًا من أن تكون سياسة عدوانية أيضًا.

والسند الأخلاقي والفكري الذي تستند عليه فكرة الهيمنة والاعتداء على الغير هو ببساطة التميز الداخلي الأمريكي، وقيمة المجتمع الأمريكي. لذلك فإن إسقاط هذه الأكذوبة حول تماسك وقوة المجتمع الأمريكي سيؤدي بشكل مباشر إلى تقلص القدرة على استخدام الزعم بأن قوة أمريكا الاجتماعية والأخلاقية، يمكن أن تبرر أفعالها الإجرامية. لا بد للعالم أن يتكاتف من أجل إسقاط أكذوبة «الإمبراطورية الخيِّرة»، التي حاولت الولايات المتحدة أن تفرضها على مخيلة شعوب العالم؛ كي تُبرِّر بها مشروعات النهب والسيطرة والعدوان على الغير.

الواقع الداخلي .. ونظرة إلى المستقبل الأمريكي:

إن الولايات المتحدة لا تزال مصرَّة ومقتنعة بأنها القوة العظمى الوحيدة، وأن لها حقوقًا عالمية بسبب ذلك،

(١٧) «الإمبراطورية الأمريكية»، «ثلاثية الثروة.. الدين.. القوة، من الحرب الأهلية إلى ما بعد ١١ سبتمبر»، سمير مرقس، مكتبة الشروق، ٢٠٠٣م، ص٦٦.

(١٨) مفارقة القوة الأمريكية، جوزيف س. ناي (الابن)، مكتبة العبيكان، ٢٠٠٣م، ص٧٨.

وأن هـذا الأمـر سـوف يمتـد إلى عقـود قادمـة، وبأنهـا كدولـة قـادرة علـى قيـادة العـالم ورسـم مصيره. وفي المقابـل فـإن هنـاك مؤشـرات عديـدة، كالـتي ذكرناهـا في هـذا البحـث، مـن شـأنها أن تـؤدي بالتفكـير إلى نتيجة معاكسـة تمامًـا، مفادهـا أن الولايـات المتحـدة مُقْدِمَـة علـى سـيناريو الانهيـار والتفـكك؛ بفعـل تلـك العوامل التي يبدو أن بعضها خارج نطاق السيطرة التامة.

إن القانـون العـام الـذي أدى إلى سـقوط الإمبراطوريـات، كمـا أكـد مـن قبـل بـول كينـدي في كتابـه «صعـود وسـقوط القـوى العظمـى»، هـو قانـون بسـيط ومطَّـرد، وهـو أنـه إذا زادت الالتزامـات الاسـتراتيجية للإمبراطوريـة عـن قدرتهـا الاقتصاديـة؛ فإنهـا لا بـد أن تسـقط. وقـد يكـون ذلـك صحيحًـا تمامًـا مـن النواحـي العقليـة والفكريـة والاقتصاديـة. ولكـن هنـاك أسـبابًا أخـرى يمكـن أن تكـون هامـة ومؤثـرة في التراجـع الحضـاري، أو المدنـي لدولـة مـا، وهـي أسـباب ترتبـط بالقيـم الأخلاقيـة للمجتمعـات، ومـا يمكـن أن يسـمى بالـ«المحتـوى القِيَمِـي والأخلاقـي للحضـارة». وقـد نجحـت أمريـكا في تفريـغ الحضـارة الغربيـة مـن الكثـير مـن قيمهـا الـتي تطلعت لهـا بعض شعوب العالم في العقود الماضية.

لم تبـدأ هـذه التجاوزات مـع إدارة جورج بـوش، أو مع مقـدم المحافظـين الجـدد ومحاولتهـم توجيـه السياسـة الأمريكيـة، وإنمـا بـدأ الأمـر قبـل ذلـك بكثـير. يـرى المفكـر الفرنسـي ميشـال بوغنـون أن البـذور الأولى للتجـاوزات الأمريكيـة الراهنـة، العدوانيـة في نظـر البعـض، غـير القابلـة للتحمل لـدى الكثيريـن، المثيرة في كل حـال للسـواد الأعظـم، نجدهـا في عقيـدة القادمـين مـن إنجلـترا وإيكوسـيا، في العقـود الأولى مـن القـرن السـابع عشـر. إنهـا «عقيـدة كالفينيـة» تقـرر مـا يلـي: لئـن كان الله قـد سمـح بـأن يجتمـع في أرض أمريكيـة شـعب مـن رجـال ونسـاء مميزين؛ فذلـك لأنه منـح هذا الشـعب «رسـالة حكـم العـالم» ذات يـوم. هكـذا، بعد تأسـيس الأمـة سـنة ١٧٧٦م، يفسـر إجمـاع الخطابات: أمريـكا، الديمقراطيـة النموذجيـة، الـتي اختارهـا الـرب، لا يمكنهـا إلا أن تكـون المرشـدة للطريـق الـذي يجـب السـير عليـه، والقائـد لموكـب أمـم الكون.

ولم يـر الآبـاء المؤسسـون، ثـم معظـم النخب السياسـية والتجاريـة والعلميـة والثقافيـة في كل العصـور، أن الأمور يمكنها أن تكون مغايرة لذلك الاعتقاد.(١٩)

لقـد بـدأت أمريـكا منـذ اليـوم الأول لهـا كمشـروع نفعـي خالـص. وكمـا يؤكـد المفكـر شـوقي جـلال في كتابـه المتميـز «العقـل الأمريكـي يفكـر»، فـإن العقـل الجمعـي الأمريكـي منـذ بدايـة تكوُّنـه لا يعرف غـير اثنتـين: الإرادة والغايـة... وإذا كانـت الإدارة هـي مـبرر الوجـود؛ فـإن الغاية هـي عـين الوجود، تُكسِـبه معنـاه، وتُضفِـي عليـه قيمتـه. وتحقـق الغاية هـو تحقق للوجـود الذاتـي. وهكـذا تغـدو الـذات مصلحـة أو مشـروعًا قابـلاً للتحقـق بفعـل الإرادة، وبدونـه ينتفـي الوجـود... ولم تكـن أرض الميعـاد هـي المدينـة الفاضلة الـتي نسـجتها أحـلام مـن صنـع الخيـال، لتكـون أمّ الجميـع، والجميـع أبناؤهـا. بـل حيـاة صـراع أو تفاعل قائـم علـى الصراع. صـراع مصـالح وغايـات، أو صراع وجود(٢٠).

إن العوامـل الاجتماعيـة تسـاهم بـلا شـك في التراجع الأمريكـي الراهـن، ويشـغل موضـوع التغـيرات السـكانية بـال الكثـير مـن المحللـين الغربيـين، ليـس فقـط فيمـا يتعلـق بمسـتقبل الدولـة، وإنمـا كذلـك مـا يتعلـق بمسـتقبل الحضـارة الغربيـة ذاتهـا. لقـد كتـب المحلـل السياسـي الأمريكـي نيـل فيرجسـون، وهـو أسـتاذ التاريـخ الاقتصـادي والسياسـي في جامعـة نيويـورك، في دراسـته عـن «مـا هـي القـوة؟» قائـلاً: «أنـت فقـط تحتـاج أن تسـأل الفرنسـيين، الذيـن كان انحدارهـم وسـقوطهم كقـوة عظمـى، مرتبطًـا بانخفـاض معـدل المواليـد نسـبيًّا في القـرن التاسـع عشـر.. ففـي القـرن الثامـن عشـر فـاقَ تعدادهـم كل القوى الأوروبية الأخرى، باستثناء روسيا».

ومـن المناسـب أن نذكـر هنـا في نهايـة هـذه الدراسـة عبـارة هامـة للمفكـر الفرنسـي «إيمانويـل تـود» الـذي يقـول: «هنالـك منطـق خفـي في الأسـلوب (المخمور)

(١٩) «أمريكا التوتاليتارية»، «الولايات المتحدة والعالم: إلى أين؟»، ميشال بوغنون – موردان، دار الساقي، لبنان ٢٠٠٢م، ص: ١٩، ٢٠.

(٢٠) «الإمبراطورية الأمريكية»، «ثلاثية الشروة.. الدين.. القوة، من الحرب الأهلية إلى ما بعد ١١ سبتمبر»، سمير مرقس، مكتبة الشروق، ٢٠٠٣م، ص٤٨.

في الظاهر الذي تنتهجه الدبلوماسية الأمريكية، فالولايات المتحدة الحقيقية هي من الضعف بحيث لا تقوى سوى على مجابهة القوى العسكرية الصغيرة الهزيلة. وهي تحاول باستفزازها جميع اللاعبين الثانويين، أن تؤكد دورها العالمي. وتستوجب تبعيتها الاقتصادية للعالم حضورها العالمي بطريقة أو بأخرى، ويقودها عدم كفاية الموارد الحقيقية إلى أن تضخِّم الصراعات الثانوية وتُحيلها إلى عمليات هستيرية مسرحية».

أما عن الهجرة من العالم الإسلامي فقد كتب قائلاً: «ومما يستحق الملاحظة أيضًا؛ أن معدل النمو السكاني في العالم الإسلامي، ما زال يتدفق عند معدل، يُقارب ضعفَ المعدل الصيني. وإذا كنا نشهد -كما يجادل هنتنجتون- «صدام الحضارات»؛ فلا بد أن يكون مما يَستحِقُّ الاهتمام؛ أنّ حضارتهم تشهد نموًّا بالمعنى الحرفي، أكثر من حضاراتنا. وهي بالإضافة إلى ذلك حضارةٌ أكثر شبابًا بكثير، مما عليه حالُ الحضارة الغربية الهَرِمَة». إن الغرب لا يتأمل ويفكر في التعامل مع الأمة الإسلامية والعربية من المنظور الأمني أو الاقتصادي فقط، كما يحاول البعض إقناعنا، ولكنه أيضًا يدرس الأمة، ويحذر منها من الجوانب الفكرية والحضارية أيضًا. إننا بالمقابل بحاجة إلى أن نفهم الغرب حقًّا قبل أن نحدد موقفنا من أطروحاته، ومن مواقفه. الفهم سيجعلنا أكثر دراية بحجم المواجهة الحضارية التي تواجهها الأمة في علاقتها بالغرب.

إن ذلك الزمن الذي كان يجمع في الولايات المتحدة القوة الاقتصادية والعسكرية والتسامح الفكري والثقافي، يبدو الآن بعيدًا جدًّا. لم تعد أمريكا الضعيفة وغير المنتجة لعام ٢٠٠٠م متسامحة. إنها تزعم أنها تجسد مثلاً إنسانيًّا فريدًا، وأنها تملك مفتاح أي نجاح اقتصادي، وتنتج الأعمال السينمائية الوحيدة المقبولة. وليس هذا الادعاء الحديث بالهيمنة الاجتماعية والثقافية، وعملية التوسع الأناني، سوى علامة بين علامات أخرى للتراجع المأسوي للقدرة الاقتصادية والعسكرية الأمريكية الحقيقية، وكذلك التراجع العمومي في أمريكا، فالولايات المتحدة تفقد قدرتها على السيطرة على العالم، ولذلك فإنها تنفي وجود هذا العالم المستقل وتنوع مجتمعاته.(٢١)

لا تتوفر للولايات المتحدة المتطلبات الأساسية للإمبراطورية؛ بسبب ثغرات هامة يسمح النظر بها بالتنبؤ بأنه لن تكون هنالك إمبراطورية أمريكية في العام ٢٠٥٠م. هنالك نوعان من الشروط الرئيسة للإمبريالية لا يتوفران لأمريكا: أولاً قدرتها العسكرية والاقتصادية غير كافية من أجل الاحتفاظ بالمستوى الحالي لاستغلال العالم. ثانيًا: أن عموميتها الأيديولوجية في حالة تراجع، ولا تسمح لها بعد الآن بأن تعامل الأفراد والشعوب بالمساواة من أجل أن تؤمن لهم السلام والرخاء، ومن أجل استغلالهم.

> الزمن الذي كان يجمع في الولايات المتحدة القوة الاقتصادية والعسكرية والتسامح الفكري والثقافي، يبدو الآن بعيدًا جدًّا.

لقد توقع الفيلسوف الألماني اشبنغل تدهور وسقوط الغرب؛ إذ ذكر في دراسة له حول مستقبل الغرب: «أن حضارة الغرب جاوزت مرحلة الشباب والقوة، ودخلت في مرحلة التدهور والشيخوخة». وبالمقابل فقد اهتم أيضًا بتأكيد توقعه أن المسلمون سيبدءون في التوحد مع نهاية القرن العشرين. وهنا لا بد أن نتفق مع الفيلسوف الألماني في الجزء الأول من عبارته التي يؤكد على شيخوخة الولايات المتحدة والغرب، ونأمل أن تكون عبارته الثانية حول توحد الأمة هي الرسالة التي تحملها هذه الدراسة كموقف للأمة في مواجهة ذلك التراجع الأمريكي والغربي.

(٢١) «ما بعد الإمبراطورية»، «دراسة في تفكك النظام الأمريكي»، إيمانويل تود، دار الساقي، ٢٠٠٣م، ص١٤٤.

معلومات إضافية

العنف ضد المرأة في المجتمع الأمريكي

أظهرت عدد من الدراسات الأمريكية، التي أُجريت خلال السنوات الأخيرة بشأن العنف والجرائم التي تتعرض لها النساء في الولايات المتحدة الأمريكية، أن حوالي ٤.٤ ملايين امرأة تعرضن للإيذاء في الولايات المتحدة الأمريكية خلال عام ٢٠٠٥م. وأن واحدة من بين كل ثلاث أمريكيات يتعرضن للضرب المبرح والاعتداء الجسدي، وأن العنف داخل البيوت الأمريكية قد أصبح وباءًا يهدد تلك البيوت من الداخل، بل ويهدد المجتمع ككل.

وكان من أهم النتائج التي خلصت إليها هذه الدراسات:

- قرابة ٥٧٤٥ امرأة تعرضن للقتل العمد؛ كأحد نتائج العنف المنزلي، فيما قدّر المحللون عدد النساء اللائي قتلن من قِبل أزواجهن أو أصدقائهن بأكثر من ٤٠٠٠٠ امرأة منذ بداية العقد المنصرم.
- ارتفاع نسبة العنف الأسري ضد المرأة في الولايات المتحدة؛ حيث تتراوح نسبة النساء اللاتي تعرضن للإيذاء من قبل شركائهن، سواء كانوا أزواج أو (أصدقاء) ما بين ٢٠٪ إلى ٤٠٪، وأن حوالي ٨.٤٪ من النساء تم إيذائهن خلال العام ٢٠٠٥م، وأن هناك حوالي ٣.٢٪ تعرضن للإيذاء مرات عديدة.
- نسبة الاعتداء والعنف على النساء الحوامل ما بين ٨٪ إلى ١٦٪.
- تشير الدراسة إلى أن الحالة الصحية كانت سيئة بين النساء اللاتي تعرضن إلى الإيذاء والعنف الأسري؛ حيث تبلغ نسبتهن ٢٠٪ مقارنة بحوالي ١٠٪ من النساء اللاتي لم يتعرضن لإيذاء أو عنف.
- تقول أستاذة بجامعة «جون هوبكتر»: بأنه كل ١٥ ثانية تتعرض امرأة في الولايات المتحدة الأمريكية لنوع ما من الاعتداء البدني أو الجنسي أو العاطفي، وأن هذا الاعتداء غالبًا ما يكون أمام الأبناء.
- قدَّرت الرابطة الطبية الأمريكية في أوائل التسعينيات أن الخسائر الناجمة عن العنف الأسري تصل إلى عشرة مليارات دولار، هي نفقات العلاج الطبي والشرطة، وإجراءات التقاضي، وتوفير المأوى والدعم والرعاية والتغيب عن العمل ونقص الإنتاجية.
- بالنسبة لموضوع الانتحار أو التفكير فيه؛ فإن النسبة بلغت بين السيدات اللاتي تعرضن للعنف العائلي والإيذاء حوالي ٤٠.٥٪، مقارنة بحوالي ٤.٦٪ من النساء العاديات، حوالي ٢٩٪ منهن احتجن إلى علاج طبي، فيما اضطر نحو ٣٣٪ منهن إلى اللجوء إلى مساكن الإيواء الخاصة بالنساء اللاتي تعرضن للعنف الأسري. وحوالي ٧٧٪ منهن لجأن إلى مستشفيات أو عيادات نفسية.
- نسبة حوادث استخدام العنف لممارسة الجنس بين النساء الأمريكيات هو حوالي ١٤٪ بينما يصل إلى حوالي ٤٠٪ بين النساء اللاتي يعشن في منازل يسودها العنف. وبلغت هذه النسبة بين الطالبات في الكليات والجامعات الأمريكية حوالي ٧.٦٪، بينما بلغت النسبة في مرحلة المراهقة بين الفتيات التي أُجبرن بالقوة على ممارسة الجنس إلى حوالي ٢٥٪.
- ربع النساء اللواتي تزيد أعمارهن عن السادسة والخمسين في ولايتي واشنطن وإيداهو تعرضن خلال مراحل حياتهن للعنف الجسدي أو الجنسي أو النفسي.

ووفقًا لهذه الدراسة التي نشرتها «ذي جيرونتولوجست»، وشملت ٣٧٠ امرأة فإن:

- ٢٦,٥٪ من هؤلاء اشتكين من أن شركاءهم مارسوا العنف ضدهن خلال فترة حياتهن.
- ٣,٥٪ منهن عُومِلن بشكل عنيف خلال السنوات الخمس الماضية.
- ٢,٢٪ منهن عُومِلن بشكل عنيف في السنة الماضية.
- ١٨٪ تعرضن للإساءة الجنسية والجسدية.
- ٢٢٪ كنَّ ضحايا سوء المعاملة النفسية، ومن ضمن ذلك التهديد، ومخاطبتهن بكلمات نابية، والسيطرة الكاملة لأزواجهن عليهن.
- ٧٠٪ من النساء تعرضن لتهديدات شفهية كان بعضها خطرًا جدًّا.

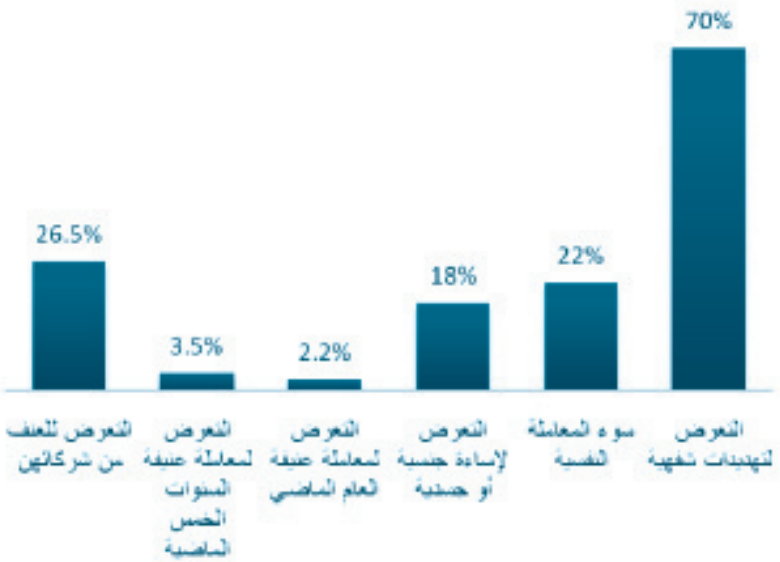

المصادر:

- العنف ضد النساء في المجتمع الأمريكي، موقع مفكرة الإسلام، ٢٢ فبراير ٢٠٠٦م.
- جريدة القدس العربي، ٧ مارس ٢٠٠٧م.